دلالة الشعر على روح العصر

للشعر الجاهلي نبرة خاصة وديباجة وحدها تفردت من بين صور الأدب العربي بطابع يكاد يميزه السمع فيحكم على أن الديباجة جاهلية أو غير جاهلية بمجرد السماع دون العلم. أَلْقِ إلى رجل يذوق طعم الأدب ويستطيع التمييز بين أساليب الشعر العربي، بمقطوعة من شعر المقنَّع الكندي الجاهلي، يقول فيها:

يُعيِّرني بالدين قومي وإنما	ديوني في أشياء تكسبهم حمدا
أسُدُّ به ما قد أخلوا وضيعوا	ثغورَ حقوق ما أطاقوا لها سدَّا
وفي فرس نهد عتيق جعلته	حجابًا لبيتي ثم أخدمته عبدا
وفي جَفْنة ما يُغلق الباب دونها	مكلَّلة لحمًا مدفَّقة ثردا
وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لمختلف جدًّا
فإن أكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومهم	وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيرًا بنحس تمرُّ بي	زجرت لهم طيرًا تمرُّ بهم سعدا

ثم أَلْقِ إليه بمقطوعة أخرى من الشعر يتمثل فيها من نَفَثَات التحضر والانتقال من عصر إلى عصر، تأخذها من شعر القُطاميِّ، وهو من تلك الفئة التي تعتبر حلقة الوصل بين شعر الجاهلية وشعر المدنية، إذ يقول:

قفي قبل التفرق يا ضُبَاعا	ولا يَكُ موقفٌ منك الوداعا
قفي فَادي أسيرَكِ إنَّ قومي	وقومَك لا أرى لهمُ اجتماعا

وكيف تجامعٌ مع ما استحلَّا   من الحُرَم العظام وما أضاعا
ألم يحزُنْكِ أن حِبال قيس   وتغلب قد تباينتِ انقطاعا
يُطيعون الغُوَاة وكان شرًّا   لمُؤْتمِر الغواية أن يُطاعا

وفيها يقول:

ومَنْ يكنِ استنامَ إلى ثَوِيٍّ   فقد أكرمتَ يا زفرُ المتاعا
أكفرًا بعد ردِّ الموت عنِّي   وبعد عطائكَ المئةَ الرِّتاعا
فلو بيَدَيْ سواكَ غداةَ زلَّت   بيَ القدمانِ لم أَرْجُ اطِّلاعا
إذنْ لهلكتُ لو كانت صغارًا   منَ الأخلاق تُبْتَدع ابتداعا
فلم أرَ منْعِمين أقلَّ منَّا   وأكرمَ عند ما اصطنَعوا اصطناعا
من البِيض الوجوهِ بني نُفَيْلٍ   أبتْ أخلاقُهم إلا اتِّساعا

ثم ألقِ إليه بمقطوعة ثالثة تأخذها عن شاعر من الشعراء الذين انغمسوا في تَطْرِيَات الحضارة العربية في العصر العباسي أو العصر الأندلسي، كقول الشاعر الحضري:

وقفَ الهوى بي حيث أنت فليس لي   مُتأخَّرٌ عنه ولا مُتقدَّمُ

أو كقول ابن زريق:

أستودعُ اللهَ في بغداد لي قمرًا   بالكَرْخِ من فَلَكِ الأَزْرار مَطْلَعُهُ
ودَّعْته وبوُدِّي لو يودِّعني   صفوُ الحياة وإنِّي لا أودِّعه
وكم تشبَّثَ بي يومَ الرحيل ضحًى   وأدمعي مستهلَّاتٌ وأدمعُهُ
وكم تَشَفَّع بي أن لا أفارقه   وللضرورات حالٌ لا تُشفِّعُهُ

وفيها يَحِنُّ حنين الرِّقَّة التي تُذيب القلوب إلى سكنه ووطنه ببغداد، وكان بالأندلس يعالج سكرة الموت، فيقول:

باللهِ يا منزل القصر الذي دَرَسَتْ   آثاره وعَفَتْ مُذْ بِنْتُ أربُعُهُ

هلِ الزمانُ معيدٌ فيكَ لذَّتَنا   أو الليالي التي أَمْضَتْه ترجعُهُ؟

فإنك إذا ألقيت إليه بمثل هذه المقطوعات وأخذتها من شعر غير مألوف ولا متداوَل، لَاستطاع صاحب الذوق في معالجة أساليب العرب الشعرية أن يميز بين أساليبها ويفرق بين مصادرها بغير كثير جهد، ذلك لأن الشعر قطعة من روح العصر، يتمثل فيها كثيرٌ من كوامن النفس، وهو مرآة تنعكس عليها حقيقة تظهر حائلةَ اللون أو بيِّنَتَه بمقدار ما تؤثر الحالات السياسية أو الدينية أو العواطف، وعلى الجملة عوامل الحضارة في أنفس الأفراد والجماعات.

خذ لذلك مثلًا من أوروبا في القرون الوسطى، فإن استبداد نظام القطائع بالأفراد وبالشعوب وتوالي كوارث الحروب والثورات على الناس، قد طبع على نفوسهم بخاتَم من الحزن والانقباض تراه ظهر متجليًا لا في الشعر ولا في الأدب وحدهما، بل تعدى إلى أكبر مظاهر الحياة دلالة على اتجاه المشاعر الإنسانية، ظهر متجليًا في نسق البناء، فإن الناس قد عكفوا على الفن الغوطي، وهو فن في البناء ونَسَقٌ من الألفة الذَّوْقِية في التشييد، ولا يبعث في النفس إلا الحزن والأسى، وهو بعقوده المنحرفة الزوايا وضخامته وبساطة شكله لا يبعث في الروح من أثر الإحساس بالجمال شيئًا غير مقرون بشعور من الحزن عميق يملأ النفس رهبةً وعظةً. والغالب أن هذا الفن قد ورث في أوروبا عن القرون الأولى عندما كان الناس في خوف مستمر على حياتهم من غارات أعدائهم، وعندما كان أمراء القطائع لا يعيشون إلا في قلاع يسمونها القصور تجاوزًا.

وأي شيء يبعث في النفس من شعور الانقباض والألم من منظر قلعة شُيِّدت على أن تكون رمزًا لانحطاط الخلق الإنساني وما فيه من نزعة إلى القتل وحب الحطام، وهي بضخامتها وقوتها ليست إلا درعًا يدَّرِعه الأحياء حذرَ اختطاف نفوسهم من بين جنوبهم بين آونة وأخرى؟ فلما غشت أوروبا غياهب الاستبداد في القرون الوسطى وامتدت يد الاستبداد حتى إلى الفكر الكامن وخَطَرَات النفوس، تتخذ ذريعة للقتل والإحراق على يد محاكم التفتيش، وضاقت الحياة بما وضع المُؤَمَّرون على الناس من نظامات وعقائد ذرعًا؛ تجلَّت حاسَّة الانقباض والحزن في نسق البناء، وأي نسق أبعث في النفس على الشعور بالحزن من نسق البناء الغوطي؟!

كذلك الحال إذا نظرت في فن البناء العربي، تجد أن فيه جمالًا وليس فيه ألفة. وهذا أمر يدل واضح الدلالة على أن مدنية كل شعب إنما تستمد من حالات ذهنه الكامن، فإنك إذا رجعت إلى حياة العرب في فيافيهم وبواديهم، عرفت لماذا يكون في فن البناء العربي جمال، وليس فيه ألفة.

لم يكن للعرب قبل أن يفتحوا الدنيا المعروفة لعهدهم نسقُ بناء خاص؛ لأنهم عاشوا في الصحاري تحميهم سيوفهم وتأويهم خيوشهم. غير أن حاسة الجمال التي ورثوها عن عيش البادية، سماء صافية الأديم وصحاري منبسطة إلى منتهى الأفق والهواء يلفح وجوههم وجسومهم من أينما هبَّ وحيث ثار صبًا أو جنوبًا؛ قد غرست في نفوسهم نزعة إلى حب الجميل في ذاته. غير أن حياتهم لم يكن فيها من الألفة ما يغرس في العقل كفاءة على تكوين نسق خاص يخرج ألفة تامة في شيء يُلقى إليهم ليتعهَّدوه بالتحوير والتكييف. فلما فتحوا العالم أخذوا قطعًا من فن البناء كانت ذائعة في مجموع المدنيات التي ورثوها عن الرومان ومصر وفارس وبابل، وأخرجوا منها نسقًا خاصًّا للبناء العربي فيه كل موحيات الجمال، إن أُخذ قطعًا ونُظر فيه أجزاء، ولكنه في المجموع بعيد عن الألفة المتبادلة بين أجزائه، والسبب في هذا أن حاسة الجمال التي ورثوها من بيئتهم البدوية الأولى قد ظهرت في اختيار النسق، كما انعدمت فكرة الألفة تمامًا في الوضع؛ لأنهم عدموا فكرة الألفة في حالات حياتهم الأولى.

ثم ارجع معي قليلًا إلى الشعر الجاهلي وطُفْ بنظرة أولية في المعلقات وفي قصائد تعتبر في القدر الثاني بعد المعلقات، فإنك تجد أن كل شاعر من شعراء المعلقات ومن عاصرهم قد طُبع بطابع عصره؛ فظهرت بوادر فكرة الكامن ومشاعره جلية في شعره. خذ أولًا عنترة العبسي وقد عاش في زمان اكتنفته فيه الحروب ومساجلات القبائل، فتراه في حماسياته كما هو في تشبيهه كما هو في فخره، صورة مكبرة من صور الجندية في العصر الجاهلي؛ خذه أولًا في حماسياته إذ يقول:

ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تَدُرْ　　للحرب دائرةٌ على ابنَيْ ضَمْضَمِ
الشَّاتِمَيْ عِرضي ولمْ أَشْتِمْهما　　والنَّاذرِيْن إذا لمْ أَلْقَهما دمي
إنْ يفعلا فلقد تركتُ أباهما　　جَزَرَ السِّباعِ وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

وخذْه في تشبيبه إذ يقول:

فبعثتُ جاريتي وقلتُ لها اذهبي   فتَحَسَّسِي أخبارَها ليَ واعلمي
قالت رأيتُ منَ الأعادِي غِرَّةً   والشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لمنْ هو مُرْتَمِ
وكأنَّما نَظرتْ بِجِيدِ جَدَايَةٍ   رَشَأٍ منَ الغِزْلَانِ حُرٍّ أَرْثَمِ

فنراه لا ينفك عن ذكر الأعادي والمغامرة في سبيل من يحب. ثم خذه في فخره إذ يقول:

ولقدْ شَرِبْتُ منَ المُدَامَةِ بعدَما   رَكَدَ الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أَسِرَّةٍ   قُرِنَتْ بأَزْهَرَ في الشَّمَالِ مُفَدَّمِ
فإذا شَرِبْتُ فإنَّني مُسْتَهْلِكٌ   مَالي وعِرْضِي وافرٌ لمْ يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فما أُقَصِّرُ عنْ نَدًى   وكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلي وتَكَرُّمِي

فهو في موقف من يمزج بين حد الفروسية والحرب وبين خطاب يُلقيه إلى ناعسة جَفْنٍ وهَضِيمة كَشْح، يريد أن يذكر محاسن خُلُقه وكرم شمائله وسخاء كفه، ولكن في صورة وبنبرة تنُمُّ عن نفسٍ هيَّجها شجن الحب، ولكن ملكتها سَوْرة الحرب والانتقام.

ثم خذه في وصفه إذ يقول:

وكأنَّ فارَةَ تاجرٍ بقَسِيمَةٍ   سَبقَتْ عوارِضَها إليكَ من الفَم
أو روضةً أُنُفًا تضمَّن نبتَها   غيثٌ قليلُ الدِّمْنِ ليس بمَعْلَمِ
جادتْ عليها كلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ   فتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كالدِّرْهَمِ
سَحًّا وتَسْكابًا فكلَّ عشيَّةٍ   يجري عليها الماءُ لمْ يَتَصَرَّمِ
وخَلَا الذُّبابُ بها فليس ببارحٍ   غَرِدًا كفِعل الشَّاربِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذراعَه ببَنَانِهِ   قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجزَمِ

تراه يريد أن يصف فم معشوقته فيشبهه بفارة التاجر؛ إذ تسبق إليك رائحة المسك منها، ثم يمضي في الوصف فيشبِّه فمها بروضة، ويصف الروضة فيذهب إلى ذكر الذباب والجزام، وهذا دليل على أن مقتضيات زمانه وظروف حياته قد صرفته عن كل شيء إلا

عن الحرب؛ فتراه يجيد وصف المعركة، ولا يجيد وصف كاعب حسناء أخذ حبها بمجامع قلبه.

ثم ارجع معي إلى امرئ القيس، فهو على فروسته، وعلى أنه معدود من فرسان العرب كما يدل على ذلك اسمه، فإن امرأ القيس معناه رجل الشدة والبأس، تراه في كل معلَّقته لا يذكر إلا الحسان والترامي عليهن، ولم يذكر السيف ولا الحرب، وإن كان أجاد وصف جواده لا خائضًا معركة ولا مدركًا صيدًا. خذ مثلًا من تشبيبه:

أفاطمُ مهْلًا بعدَ هذا التدلُّلِ وإنْ كنتِ قد أزمعتِ صَرْمِي فأَجْمِلي
أَغرَّكِ منِّي أنَّ حبَّكِ قاتِلي وأنَّكِ مهما تأْمُري القلبَ يفعلِ؟
وإنْ تكُ قد ساءَتْكِ منِّي خليقةٌ فسُلِّي ثيابي منْ ثيابكِ تَنْسُلِ

«فسُلِّي ثيابي من ثيابك»، أي فانزعي قلبي من قلبك ينتزع. وفي هذا مثال لا للحب ولكن لنزعة المجون والمتعة بالنساء والتشبيب بهن، لا لحبهن ولكن للمتعة بهن من طريق الإغواء والإغراء بالشعر، وإظهار الحب دون حقيقة ما يشعر به القلب، وهي صفات امتاز بها عصر امرئ القيس. وإليك مثلًا من معلقته يوم عقَر ناقته للعذارى حول غدير ماء، إذ يقول:

ويومَ عقَرتُ للعَذَارَى مَطِيَّتِي فيا عجبًا منْ كُورِها المتحَمَّلِ
فظلَّ العذارَى يرتَمِينَ بلحِمِها وشحمٍ كهُدَّاب الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ

أما وصفه للَّيْل فلا يدل على أنه يناجي حبيبًا ملك قلبه وعز لقاؤه، وإنما يدل على حنينه إلى شيء مبهم، ولعله يحنُّ إلى بني أسد قبيلته، وما كان له ولأهله فيها من عزٍّ وسُؤْدُد قبل أن يغضب عليه أبوه لإيثاره التسكُّعَ مع ذُؤْبان العرب على العكوف على مآثر آبائه، فيقول:

وليلٍ كموجِ البحر أرْخَى سُدُولَه علَيَّ بأنواع الهموم ليَبْتَلي
فقلتُ له لمَّا تمطَّى بصُلْبِهِ وأرْدَفَ أعْجازًا ونَاءَ بكَلْكَلِ
ألَا أيُّها الليلُ الطَّويلُ ألَا انْجَلي بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمْثَلِ

فيَا لكَ منْ ليلٍ كأنَّ نجومَهُ بكلِّ مُغَار الفَتْلِ شُدَّتْ بيَذْبُلِ
كأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقتْ في مَصَامِها بأَمْراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

وعلى هذا تراه في كل قصيدته العصماء لا يعبر إلا عن نزعات عصره ونفَثات بيئته التي حضَّتْه على أن يعاقر الخمر ويَسْتَغْوي النساء، وهما صفتان خُصَّ بهما فتيان عصره كما يُستدل على ذلك من شعره وشعر معاصريه.

ثم ارجع إلى النابغة الذُّبياني وعلاقته بالنعمان بن المنذر، وكان قد وُشِي به عنده لعلاقته بـ «المتجرِّدة» على ما يقال؛ إذ وصفها في قصيدته التي مطلعها:

منْ آلِ مَيَّةَ رائِحٌ أو مُغْتَدِي عَجْلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزَوَّدِ
زعَم البَوارحُ أنَّ رحلتَنا غدًا وبذاكَ تَنْعابُ الغرابِ الأسودِ
لا مرحبًا بغدٍ ولا أهلًا به إنْ كانَ تفريقُ الأحبَّةِ في غدِ

وفيها يقول:

قامتْ تَهَادَى بيْن سِجْفَي كِلَّةٍ كالشَّمس يومَ طُلوعها بالأسعدِ
سقَطَ النَّصِيفُ ولمْ تُرِدْ إسْقاطَهُ فتَنَاوَلَتْه أَوْثَقَتْنا باليَدِ

ثم مضى في وصفها بما أوسعَ باب الوشاة للوشاية عند النعمان فأراد قتله وهرب، ثم أرسل إليه بالأبيات الآتية فعفا عنه:

حَلَفْتُ فلمْ أتركْ لنفسكَ ريبةً وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ
لئنْ كنتَ قد بلِّغْتَ عنِّي خيانةً لَمُبْلِغُكَ الواشِي أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ أيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ؟

وهذا شعر وتلك سليقة لا يخلقها في نفسية الشاعر إلَّا عصرٌ ارتكزت نواة الأدب فيه حول مدنية خاصة، وطابَع من الحضارة كان يمثله النعمان في خَوَرْنَقِه بالحِيرة.

وكذلك الحال في شعر زُهَيْر بن أبي سُلمى في معلَّقته وحوليَّاته. غير أن معلقته في الواقع هي أدلُّ شيء على نزاهة نفسه وعلى تأثير عوامل الحياة التي حوَّطتْه في زمانه، ولا تذكر لك شيئًا من حِكَمِه، بل تذكر لك حادثة عطف فيها على قوم آذاهم شخص منهم، وهي صفة قليلًا ما تظهر في أخلاق العرب، إذ يقول بعد أن نَاحَ على الطُّلُول، وقبل أن يمشي في ذكر حِكَمِيَّاتِه:

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الحيُّ جرَّ عليهمُ	بِمَا لا يُواتِيهم حُصَيْنُ بنُ ضَمْضَمِ
وكان طَوَى كَشْحًا علَى مُسْتَكِنَّةٍ	فَلا هو أَبْدَاها ولَمْ يَتَقَدَّمِ
وقال سَأَقْضِي حاجَتي ثُمَّ أَتَّقِي	عدُوِّي بألْفٍ مِنْ ورائِيَ مُلْجِمِ
فشَدَّ فلمْ يُفْزِعْ بيوتًا كثيرةً	لدَى حيثُ أَلْقَتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ

وشعر زُهيْر كله تتمثل فيه نزعة الحكمة وفاضل الأخلاق. وهكذا إذا سايرت الشعر في كل عصور التاريخ لا تجده يدل على شيء دلالته على صفات الناس الذين يخرجه ذوقهم، وعلى نزعاتهم، وعلى الحالات القائمة حقًّا فيهم، فالشعر هو عنوان الحياة ومرآتها، وهو صورة مصغرة من نفسية الأمم تظهر متجلِّية في أوضاع لغتها.